

## الحقيقة البراغماتية بين الاعتقاد والعمل (شارل سندرس بورس نموذجاً) \*\*\*

د. حيرش سمية\*

"إننا نكأن على البراغماتية أن تجعل من الفعل وحده جوهر الكائن الإنساني وهدفه الأسمى. فإنها ستحكم بذلك على نفسها بالإعدام، لأن ذلك سيعني أنه لا وجود لأي سلوك عقلاني". (ش.س.بورس)<sup>1</sup>

\*\*\*\*

مقدمة\*\*

اشتهرت الولايات المتحدة الأمريكية، بالفلسفة البراغماتية، التي يعدّ "شارل سندرس بورس" "Charles Sanders Peirce" (ت1914) أول رائد لها، فالبراغماتية توصف بأنها "فلسفة الديمقراطية الأمريكية"<sup>2</sup>، وبأنها فلسفة العصر الذهبي لأمريكا، المتأثرة بالمبادئ السبعة عشر الشهيرة التي تحكم منذ الاستقلال (1770)<sup>3</sup> الحياة السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والدينية الأمريكية.

كما توصف هذه الفلسفة، بفلسفة النجاح والأثر المتولدين عن العقل وعن التجربة. مما يحملانه من مبادئ خاصة بالنسبة للحرية وللعمل وللمبادرة وللعقيدة، من هنا كان شعار هذه الفلسفة الفاعلية والأثر كعيارين لكل حقيقة ولكل عمل.

لذلك جاءت البراغماتية البيروسوية معبرة عن الواقع الاجتماعي الخاص بأمريكا، المتعددة الأجناس والعقائد، والثقافات والحضارات، التي شكلت الأسس الأولى لما يسمى بالعالم الجديد.

\* قسم العلوم السياسية والعلاقات الدولية، جامعة وهران2.

1- هو المؤسس الأول للمنهج البراغماتي. ولد سنة 1839 بمدينة "كامبريدج" بالولايات المتحدة الأمريكية. تعلم الرياضيات وغيرها من العلوم الأخرى، خاصة التجريبية منها. شغل بعد ذلك العديد من المناصب، الإدارية والجامعية، خاصة في جامعة "هارفارد وهوبكنغ"، "أسس النادي الميتافيزيقي" لنقد هذه الأخيرة. كتب العديد من الكتب والمقالات حول مذهبه أو منهجه حول البراغماتية. منها "كيف نجعل أفكارنا واضحة؟" و"تثبيت الاعتقاد"، و"جوهر البراغماتية"... الخ. وقد جمعت أهم أعماله بعد وفاته في ثمانية أجزاء ما بين 1958\_1960 تحت عنوان "مجموعة الأوراق" (Collected papers)، توفي سنة 1914.

\*\* - Abstract: In this article, I have proposed a way of thinking about democratic politics from pragmatist Peircean conception of democratic and pluralism view. Charles sanders Peirce in his pragmatist philosophy of democracy offers a new vision for his conception of truth and belief and certainty, this philosophy has influenced the American thinking and way of life.

2 - Deledalle Gérard: La Philosophie Américaine, Ed. L'âge d'homme, Lausanne, 1983, P,16.

3- وهي المبادئ التي شكلت منذ سنة 1776 المدخل الرئيسي لوثيقة الاستقلال الأمريكي (The Declaration of Independence) الدستور الأمريكي الذي تلاه والمتمثلة في احترام الفردية...والحرية والديمقراطية وحرية الرأي والعقيدة والفكر والعمل وبذلك أكدت كذلك وبالتالي أنها إيديولوجيا وفلسفة النجاح الإنساني اللامحدود..إلا بحدود قدرة الإنسان، نجاح لا يلغي العقل من أجل العقيدة، أو هذه الأخيرة من أجل العقل وهذه المبادئ تتعلق بالمقاربة الأمريكية للإنسان وللطبيعة، أن كل الناس ولدوا سواسية، وأنهم خلقوا منذ الميلاد ومنحوا من طرف الله الذي خلقهم حقوقاً لا يمكن لأحد أن يسلبهم إياها، ومن بين هذه الحقوق حق السعادة، والحياة والحرية. أنظر: Cf. Morton Levi, PUF, Paris (W): La pensée sociale en Amérique, trad. M.

لقد جاءت هذه البراغماتية كفسلفة معبرة، وإلى حد كبير، عن الواقع الاجتماعي والثقافي والديني الذي بناه أولئك المهاجرين وعن أبعاده الإنسانية منها، والاقتصادية والسياسية والاجتماعية، والعقائدية والثقافية المتميزة بذلك كانت البراغماتية أقرب فلسفة إلى المواطن الأمريكي المسكون بهاجس التفوق والنجاح والقوة المادية خاصة.

إن هذه المكانة التي تحتلها البراغماتية في الفكر وفي الحياة الأمريكية لا تزال فاعلة، بالرغم من انصراف حتى من الشباب الأمريكي اليوم عنها.

تعرف البراغماتية، بأنها نظرية أمريكية تجريبية في المعرفة، كما تعرف أنها الفلسفة الأولى والوحيدة، حتى الآن، التي يلعب فيها الفعل وآثاره العملية دورا سياسيا.

ينطلق "شارل بورس" من القول أنه، لكي نمسك بفكرة ما أو شيء ما، فإنه يجب أن نحدد أي آثار عملية يمكن أن تتولد عن مثل تلك الفكرة أو عن ذلك الشيء أو الفعل الذي هو في النهاية مجموع آثاره وتناججه<sup>1</sup>.

فالبراغماتية، منهج وليس فلسفة، يرى أن حقيقة أي شيء أو فكرة إنما تتمثل في الآثار العملية المتولدة عنه، هي مجموع آثاره، فالحقيقة تتمثل في النجاح، أو الأثر، الفعلي، العملي، أو المعنوي، الذي تولده فكرة ما أو معرفة ما أو شيء ما، أو يقين ما.

تعني البراغماتية في معناها الأصلي والمشتقة من الكلمة اليونانية "براغما" (Pragma)، شيء أو فعل أو الأثر أو المعنى معنويا كان أو ماديا الذي تولده أو تتركه الفكرة فور تحولها إلى عادة أو سلوك بمجرد حصولها على الاعتقاد المفضية إلى ترسيخه، فكل ما يقدم أو يقال في الأخير بالنسبة لهذا المذهب البراغماتي من حقائق، يجب أن تقود إلى تجربة ذات نتائج عملية وإلا فليس له معنى "فكرني عن شيء هي فكرني عن آثاره المحسوسة"<sup>2</sup>، البراغماتية ترى أن كل اعتقاد يهدف إلى الحقيقة، وأن الاعتقاد بالتالي إنما هو العمل وفقا لتلك الحقيقة.

بذلك ربط بورس، الحقيقة المتولدة عن الاعتقاد، بالفاعلية والأثر بالعملي الذي تولده من خلال السلوك، يجعل من الفاعلية والأثر بدلا للحقيقة، ويجول بالتالي هذه الأخير إلى أداة ومفسرة (الفاعلية).. لأن الحقيقة لكي تكون مقبولة، يجب أن تؤكد أولا وعمليا مثل تلك الفاعلية والأثر، اللتين نعلم أنها لا تكسبها عن طريق الحدس أو العقل بل عن طريق المعنى الموضوعي الذي تؤكد التجربة (L'expérience) العملية اتجاه ذلك الواقع.

فالاعتقاد في الفلسفة الأمريكية، لا يعني الوفاء للحقيقة والالتزام بها، وتوجيه الحياة كلها في ضوء تلك الحقيقة، بل إنه يعني الإيمان بقدرة العقل على التكيف العملي مع الواقع الذي نصنعه وتكلم بدلا عنه.

<sup>1</sup> -Ch.S. Peirce: Collected Papers, diverse editions, vol.1-8, Cambridge, (Mass), USA, 1958, P120.

<sup>2</sup> -Carl. Hausman: C S Peirce evolutionary philosophy, Ed University Press Cambridge, USA, 1997, P29.

هكذا سيأخذ "بورس" عن "باركلي" (J.Berkeley) (ت 1753)، تلك الحقيقة التي تقول، أن الواقع، ليس فقط، هو كل ما تفكر ولكنه ذلك الذي لا يتأثر بمثل ذلك التفكير من طرفنا فيه، بل هو أيضا كل ما لا تفكر فيه. كما سيأخذ عن "السفسطائيين" قولهم أن حقائق الأشياء تابعة للاعتقادات، وأنه لا وجود لمقياس كلي للحقيقة، ولا وجود لحقيقة موضوعية، يمكن الرجوع إليها، فالحقيقة مما رأوا مرتبطة بنا ولا وجود لها بالتالي خارجنا. كما سيؤكد ذلك بورس وغيره من رموز البراغماتية.

من هنا الفرق بين ادعاء أو توهم الاعتقاد، والافتناع والوصول إلى الحقيقة ومن الاعتقاد الحقيقي الذي يظل الفعل المجسد له المعيار الأول لصدقه ولصحته. لأن كل معرفة لا تخرج عن دائرة الآراء، والأفكار التي نكوها، أو نستخلصها، انطلاقا، من وعينا بذاتنا أولا، وبالواقع المتواجدين فيه بعد ذلك، وذلك عن طريق كل من الحس (Sens) والإحساس (Sensation) والحس المشترك (Commun sens)، فإنها أولا وقبل كل شيء أفكار هادفة إلى التعامل العملي مع ذلك الواقع. لذلك كانت البراغماتية البورسوية خاصة أساسا منهجا أساسه الأول المعني وليس فقط العمل أو الفاعلية<sup>1</sup>.

ذلك يعني أن الحقيقة ليست تأمل ونظر، بل إنها قبل كل شيء نشاط وعمل والهادفة أساسا إلى تكيف سلوكنا باستمرار مع الواقع الذي نصنعه من خلال توليدنا لعادات ذهنية ملائمة له واعتقادات متجددة أثبتت التجربة فاعليتها إلى تكوين عادة واستعدادات للفعل.

الاعتقاد ضروري للإنسان، فإن أحدا لا يستطيع أن يجيا على الشك أو الإنكار التام، بل لا بد في لحظة من لحظات حياته أن يقلع عن الشك، لكي يؤمن بحقيقة أو حقائق قام البرهان عمليا على صحتها في نظره، ليحل الإيمان أو الاعتقاد محل الشك، نقبض اليقين الذي هو حال العقل المؤمن بامتلاك الحقيقة المطابقة للواقع. هذا الموقف هو الذي جاء به الإسلام بدوره وذلك من خلال ربطه بين الاعتقاد وبين الفعل، بين الإيمان وبين العمل.

لكل ذلك كانت الحقيقة موضوع الاعتقاد عند البراغماتية البورسوية هي الفعل والفاعلية، خاصة بعد ربط الحقيقة بأثرها العملي والملموس في الواقع. ... فالإيمان بحقيقة نهاية عقيدة لا تعرفها البراغماتية، وأن مدلول الفكرة، أيا كان موضوعها، هو نتائجها الفعلية التي تؤدي إليها. أما الشك فهو التردد والتشتت واليأس، أو هو الضعف الذي ينشأ عن فقدان الشعور الداخلي بالحقيقة.

بذلك تقم البراغماتية حاجزا متجددا بين حقائقها، وبين الدوغمائية من جهة، وبين ادعاء اليقين والدقة والكونية المطلقة، وهي الصفات التي يعترف "بورس" أنه يستحيل علي العقل ادعاء الوصول إليها.

<sup>1</sup> -Gérard Delleale: Ecrit sur Le Signe, Editions Le Seuil, Paris, 1968, P66

فكل معارفنا تظل تسبح في اللاوثوقية (الفيابيلزم)، كما يقول بورس والغموض نظرا لإمكانية نفيها مستقبلا<sup>1</sup>.

ولأن الشك كذلك فإن حله الحقيقي والموضوعي لا يكون في البداية عن طريق الاعتقاد، الذي يعني التسليم المبدئي باقتناع العقل بصحة الأشياء كما يتصورها، بل عن طريق الحقيقة المؤدية إلى كل اعتقاد، وذلك لسبب بسيط وهو أنه ليس صحيحا أن كل ما نعتقه هو حقيقي، فقد نعتد فيما هو خطأ كما قد نعتد فيما هو صواب، وذلك ما تؤكد بعض الاعتقادات الخاطئة، ولأن النتيجة الطبيعية للاعتقاد، المتولد عن الحقيقة الذاتية والموضوعية علي حد سواء هي اليقين، الحل الوحيد للشك ولانعدام التوازن النفسي والعقلي المتولد عنه<sup>2</sup>.

وهذا الاعتقاد الجديد العملي والصحيح حول تفسير هذه الفكرة، أو هذا الشيء المدرك، إنما هو كذلك، لأنه يدفعني إلى السلوك العملي وفقه وصولا بالتالي إلى تأكيد صحة ذلك لأن الفكر هو السلوك ومهمته هي توليد هذا الأخير.

فمثلا حينما أري، لأول مرة شيئا خشبيا ذو شكل معين، فإنني أعتقد بادئ ذي بدء، ومن خلال التجريد (L'abstraction) والاستدلال (L'inférence) بأنه شيء يستعمل للجلوس عليه.. أي أنه كرسي.

غير أن عدم التأكد التام من صحة مثل ذلك الاعتقاد، حول ما أسميه بالكرسي، لا يلبث أن يشير في نوعا من القلق ومن عدم الارتياح النفسي لينتهي بي إلى فقدان لتوازني المعنوي والجسدي وذلك ما يسميه "بورس" وغيره بالشك البراغماتي، فإن مثلا حينما رأيت مثل ذلك المدرك، الذي سبقت الإشارة إليه، (الكرسي) واعتقدت أنه كرسي، فإنني لا أستطيع أن أجزم بصحة اعتقادي هذا إلا من خلال سلوكي العملي وفقه، أي من خلال الجلوس المتكرر فوق نفس الكرسي.

فالتجربة نتيجة أساسية للفكر، ولا يمكن تصور حياة أو فكر بدونها، ففكرتي عن حقيقة شيء ما، هي فكرتي عن الآثار الحسية معنوية كانت أو مادية التي يولدها ذلك الشيء.

فالاعتقاد الصحيح، فيما يري "بورس"، هو ذلك الذي يدفع بصاحبه إلى سلوك عملي يتماشى وموضوع اعتقاده، سلوك لا يلبث أن يتحول بالتالي بحكم التكرار إلى عادة، أي إلى استعداد مستقر لسلوكه العملي وفي ظروف معينة وفقا للاعتقاد الذي يعتبر مثل تلك العادة ثمرته الأساسية.

فإن معيار الحقيقة عند "بورس" هو الفلتلية وليس مجرد الوضوح والتميز كما هو الحال عند "ديكارت" إنها تؤدي لدي "بورس" إلى فلسفة للمعني (sémiotique)<sup>3</sup>، المستخلصة من التجربة،

<sup>1</sup> - حيرش سمية، البراغمة عند شارل سندرس بورس، مجلة لوغوس، العدد الأول، دار كنوز، الجزائر، 2011، ص ص 50\_68.

<sup>2</sup> - C.Tiercelin: Le doute en question. Parades pragmatistes au défi sceptique, Edit L'Éclat Paris, 2005, p 63.

<sup>3</sup> - أنظر: حيرش سمية، شارل سندرس بورس بين العقل والتصوف، مجلة الحداثة، العدد 139\_140، دار الحداثة، بيروت، 2011، ص ص 151، 158.

معنوية كانت أو مادية والمؤدية إلى المعنى (Le sens) الذي يعد معيار كل معرفة ودليل صدقها وحركتها وهو المعنى الذي علينا تحديده وليس إضفائه علي الواقع ومعطياته المتواجدة سلفا ليتحول تعامله معها، ومع الواقع المجسدة له إلى تعامل ايجابي وفعال.

وحيث نحاول أخيرا الوقوف علي المفهوم البورسوي خاصة، والبراغماتي عامة لكل من الحقيقة، ومن الشك والاعتقاد المرتبطين بها، فإننا سنري أن الحقيقة تعني بالنسبة لهذا المذهب الفلسفي، ولتختلف رواه ورموزه الفكرة التي نكونها عمليا وتجريبيا عن الأشياء نظرا إلى أنه لا وجود لأي شيء بالنسبة لهذا المذهب، إلا من خلال الإنسان وبالنسبة إليه، كما سبق أن أكد ذلك بروتاغوراس.

كما سيؤكد ذلك بورس وغيره من رموز البراغماتية. بمعنى أن كل فرد محق في أن يجعل نفسه مقياسا للحقيقة. ولكن هذا لا يعني أن البراغماتية تظل فلسفة سوفسطائية، "وأنا وحيدة" (Solipsiste)... تحصر الحقيقة لا في الموضوعية، بل في الذاتية وفي الرغبة الفردية التي لا تشكل معيارا أو طريقا لكل الناس نحوها. أنها لا تفصل بين النظر والعمل، بين الرغبة وبين الحقيقة، أو ما تري أنه كذلك<sup>1</sup>.

كما أنها لا تنفي الدين، أو تضاده كما أنها لا تلتزم به كثيرا وهذا طبيعي لأن الدين عند البراغماتية قضية فردية بالنسبة لفرد حر لا تحد حريته سوي حرية الآخر أو ضميره بعد ذلك، إن تحرك مثل هذا الضمير.

وذلك ما فعله "بورس" كذلك حين طابق بين الفكر وبين العالم وجعل قوانين الفكر هي ذاتها قوانين العالم أو الواقع، متناسيا أن الواقع لا يعرف كما قال لا يعرف إلا بالمعتقد من جهة، وقوله من جهة أخرى، إن صحة معتقداتنا إنما تتم من خلال مقارنتها بالواقع؟ فكيف تقارن صحة معتقداتنا بواقع نحن لم نعرفه بعد؟ فلا يجوز أن نتخذه بالتالي معيارا للمعرفة، وإن كما نعرف ذلك الواقع سلفا، فما الفائدة من التأكد من معتقداتنا حوله.

وذلك انطلاقا وكما ترى البراغماتية أن فكرتنا عن شيء ما هي إلا فكرتنا عن آثاره المحسوسة. فصفة المعرفة ليست الإدراك أو مدى مطابقة العقل للواقع، بل هي نشاط وعمل والحقيقة ليست مجرد انعكاس لجوهر الشيء، وتجسيدها لماهيتها الداخلية، مثلا فعل "كانط" (E.Kant) عندما ربط، الحقيقة بظواهر الأشياء (Phénomènes) لا بكوامنها (Noumènes)، واعتبارها أن الحقيقة ليست معطي جاهزا، لا في الواقع، ولا في الفكر، وإنما هي تفاعل دياكتينيكي بين معطيات التجربة والمفاهيم العقلية. ولأنها كذلك فإنها ستظل ومهما بلغت درجة معرفتنا، نسبية ما دمنا نجهل حقيقة النومين، أو الشيء في ذاته، شأنها في ذلك شأن كل القضايا الميتافيزيقية الأخرى (الروح، الوجود، خلود النفس..الخ).

بل إن الحقيقة لا تعدو كونها حزمة من الإحساسات التي تبقى واقعا ذاتيا محضا لا يمت بأية صلة إلى طبيعة الأشياء الذاتية، فالفرد لا يتعامل من خلال نشاطه وفاعليته إلا مع إحساساته وتصوراته، إلا

<sup>1</sup> - أنظر: د.نمير العاني: حول مفهوم الحقيقة في الفلسفة البراغماتية، مجلة الطريق، العدد السادس، بيروت، 1980.

مع حاجاته الضيقة والمحدودة. فالحقيقة من المنظور البراغماتي لا تخرج عن كونها ذات طابع "سوليبيسي" أنا وحيدية، ليست سوى اعتقاد فردي أو جماعي " أن تعتقد هو أن تعمل وفقا لاعتقادك".<sup>1</sup>

الاعتقاد الذي لا يمت بأية صلة إلى العلم والمعرفة، الاعتقاد الذي لا يمتلك أي محك أو معيار له سوى نفعيته، أي نجاحه العملي ( نجاح النتائج التي تنتج عن العمل بموجبه)، مما يدفعنا إلى التمسك به وترسيخه بفعل الإيمان والثوق به عن طريق العمل، بما يولده مثل هذا الاعتقاد أو الفكرة من أثر مادي أو معنوي على سلوكنا..

بذلك يجعل بورس من الفعل وحده قاعدة أساسية وجوهرية لنشاط الفكر محولا بالتالي كل اعتقاداتنا وأحكامنا وتصوراتنا عن هذا العالم إلى مجرد أدوات عملية للتكيف الإيجابي والفعال مع هذا الواقع التي تصنعه، فدور الفكر هو توليد عادات ذهنية هي اعتقادات عملية تدفعنا كل مرة للتعامل الفعال والايجابي مع الواقع.

ولأن الشك بورسوي (نسبة إلي بورس)، يجعل بالتالي من الاعتقاد ومن الحقيقة والمعرفة المتولدين عنه ظواهر غير ثابتة أو مطلقة، بل مؤقتة ونسبية، فقد ظل هذا المفهوم مقرونا عمليا بالحرية. فقد أشار شارل بورس رائد البراغماتية، للدور الذي لعبه الفكر البراغماتي أو الحقيقة البراغماتية منذ زمن، في دعمها للديمقراطية الأمريكية، وخاصة لمفهوم الحرية حتى لا يفرغ من مضمونه، برفعها لشعار الفاعلية والأثر كمعيار للحقيقة وللعمل خاصة، وباعتبار هذا الفكر البراغماتي قد نجح أخيرا، في التوفيق والمزاوجة بين الدين وبين العمل.

من هنا تلتقي البراغماتية بالإسلام، وفي التعبير عنها عند "أبو حامد الغزالي" الذي سبق "بورس" في مفهومه للحقيقة باعتبارها فعل وفاعلية.

هذا الموقف هو الذي جاء به الإسلام بدوره، وذلك من خلال ربطه بين الاعتقاد وبين الفعل، بين الإيمان وبين العمل، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾<sup>2</sup>.

كما أشار "شارل بورس" في مقاله "تثبيت الاعتقاد"، و"كيف نجعل أفكارنا واضحة"، إلى تلك المقاربات الصوفية والتجريبية الذي سبق "الغزالي" فيها "شارل بورس"، من اتخاذ الشك طريقا للاعتقاد الديني وللإيمان وللعمل، ومن خلال الدين وأن الاعتقاد في الدين، أيا كان، يجب أن يصل عمليا، بصاحبه إلى الله من خلال تأثيره الإيجابي في سلوك الفرد.<sup>3</sup>

<sup>1</sup> -أنظر: د.نمير العاني: حول مفهوم الحقيقة في الفلسفة البراغماتية.

<sup>2</sup> - سورة الصف، الآية 2.

<sup>3</sup> -Hammana Boukhari: La Pensée de Ch. S. Peirce dans le monde arabe d'aujourd'hui communication donnée, le 07 Septembre 1989 à l'université de Harvard, (USA), et publiée par University of Texas, et

"المعرفة دون العمل ضرب من العبث والجنون، كما يقول "أبو حامد الغزالي"، والفعل دون المعرفة يبقى مستحيلا" وهي مقولته التي تعني بأن الاعتقاد في الدين يدفع إلى العمل، ولأن البراغماتية الفلسفة الوحيدة التي استطاعت أن توفق بين الإيمان (الديني) خاصة وبين العمل، حيث عاد "بورس" إلى الدين وإلى التصوف ليقول أن الزهد هو الذي يؤدي بنا إلى الاعتقاد وإلى ترسيخ الإيمان والعمل، فلا بد أن ننتظر دائما قبل أن نعتقد حتى نجد ما يبرر حسيا وعمليا مثل هذا الاعتقاد، وإذا لم يكن لمثل هذه الأدلة من وجود، فلا نمتلك مبررا سوى العزوف عن ما يملية علينا هذا الاعتقاد من سلوك. ليس لك أن تعتقد في شيء من غير أن يكون لهذا الشيء ما يعبر عنه سلوكك عمليا.

فالبراغماتية ترى أن حقيقة أي شيء هي مجموع آثاره وأنها كامنة في التجربة الإنسانية وأنها الأثر التي تحدثه الفكرة، فور تحولها إلى عادة وبمجرد حصولها على الاعتقاد المفضية إلى ترسيخه، لأن الحقيقة تتمثل في الأثر والنجاح التي تولده فكرة ما أو معرفة ما، لأن الاعتقاد هو ما يبدأ الإنسان عنده بالفعل المحسد أو الاستعداد لمثل ذلك الفعل، فالفرد لا يؤمن بفكرة ولا يعتقد بصحتها إلا بقدر استعداده للنشاط وللعمل وفقها<sup>1</sup>.

إن ربط بورس للحقيقة المتولدة عن الشك وعن الاعتقاد بالفاعلية. و.و الأثر بالعمل الذي نولده من خلال السلوك يجعل من الفاعلية والأثر دليلا لمقياس صدق وقوة الإيمان بدلا للحقيقة.

ضمن هذا المنظور يرى "بورس وغيره من رواد البراغماتية"، يرى "بورس" أن فكرة مجردة مثل فكرة الله والإيمان به تتحول إلى فكرة ذات معني عملي، إذا كان التمسك بها يؤدي إلى نتائج عملية إيجابية وجديدة في سلوكي.

إن مثل هذا المفهوم المزدوج، الحسي والحدسي، والعقلي والروحي، الواقعي والمثالي، النظري والتجريبي للاعتقاد وللحقيقة المتولدتين عنه الذي وصل "بورس" إليهما بدوره مثلما وصل إليها الغزالي من قبل وممثل هذا الاستلهام للحدس عند الغزالي، عمل بورس وبالتالي مثلما فعل الغزالي على الخروج بالإنسان وبوعيه من حالة الشك واللايقين المرغين من كل محتوى وعلى الوصول به إلى الاعتقاد، الذي لا تصور لأي نشاط عملي للإنسان في حياته بدونه.

هكذا جاءت البراغماتية البورسوية بتلك الازدواجية، العقلانية والصوفية، التجريبية والروحية، الواقعية والمثالية، وهي الازدواجية التي كان "بورس" أول من أكد ضرورتها حين قال: "إن لم تتحول إلى زهاد... فكيف ترسخ الاعتقاد، لدي فرد واحد، فضلا عن كل المجتمع"<sup>2</sup>.

وبذلك أيضا كانت البراغماتية، الخاصة، والبراغماتية البورسواوية عامة، ومن خلال امتدادها الفلسفية والنفسية والتربوية والروحية والسياسية الخ، الفلسفة الأمريكية الأولى والوحيدة التي نجحت في التوفيق،

<sup>2</sup> - par la Revue Algérienne de Philosophie, Institut de philosophie, Université d'Oran, Algérie, 1997, no, 1. P. Gauchotte: Le pragmatisme, Que sais-Je ? PUF, Paris, 1992, p 28.

<sup>2</sup> -Ludwig Marcuse: La Philosophie américaine, Gallimard, Paris, 1967, p 64.

أو في المواجهة بين النزعات المادية، ممثلة أساسا في الرسائل من جهة وبين التصور الديني للعالم وللكون، البروتستانتية، سلبية الليبرالية، من جهة أخرى.

لهذا ظلت البراغمية، ومنذ نهايات القرن العشرين مقرونة لدى العديد من الأمريكيين ومن غير الأمريكيين، ومن بينهم العرب، بالنجاح المادي الذي حققته أمريكا في مختلف الميادين. هذا بالإضافة إلى أنها كانت الفلسفة الوحيدة المتفائلة بالإنسان، والمعبرة عن النجاح الإنساني اللامحدود، نجاح لا يلغي العقل من أجل العقيدة ولا هذه الأخيرة من أجل العقل، بل يوازن بينهما باستمرار.

بذلك تكون البراغمية، من الفلسفات الأوائل التي ربطت الإيمان الفردي بالعمل، كما ربطت الديمقراطية الأمريكية والحقيقة بالفاعلية وربما أيضا القول بالعمل. باعتبار أن البراغمية، هي الفلسفة الوحيدة، التي حتى اليوم ما زال يلعب فيها الفعل والأثر، دورا سياسيا واقتصاديا وتقنيا، فالبراغمية دعمت الديمقراطية، وحمتها من الفوضى ومن الكلام الفاقد لأي مصداقية أو مضمون، كما أنها قد أسهمت في توطيد الديمقراطية الفاعلة، وفتحت من خلالها كل الأبواب أمام حرية التعبير والتفكير والعمل والعقيدة أو الاعتقاد والقول والفعل، وهي الحرية التي لا تقم مثل صاحبها إلا بأثرها العملي في الواقع، هذا بالإضافة إلى أنها كانت من الفلسفات المتفائلة بالإنسان.

نشير هنا إلى الدور الذي لعبته البروتستانتية (Le protestantisme)، ممثلة خاصة في الكالفينية واللوثرية (Le Calvinisme , Luther) من خلال إضفاء البعد الديني على البراغمية.

نلاحظ أن هذا المفهوم العقلاني والفاعل للحقيقة، وللشك المرتبط بها، هو الذي ساد في العالم الغربي المتقدم، منذ العصور الحديثة، وهو الذي يسود، نأمل أن يسود من جديد في العالم العربي والإسلامي ليتحول عمليا، مثلما هو في البلدان المتقدمة، المدخل الإجباري الأول إلى الحقيقة أيا كانت طبيعة هذه الحقيقة دينية كانت، أو فلسفية، أو علمية، أو اجتماعية.

إن تبني الولايات المتحدة الأمريكية والغرب للبراغمية كان ولا يزال وراء العديد من أوجه التقدم الفكري والمادي الذي يعرفونه منذ قرون، مثلما يمكن أن تكون وراء التقدم الذي ينشده العالم العربي والإسلامي، وغيرهم من الشعوب، لتمكين العرب، خاصة من فهمها ومن الاستفادة الحقيقية من إيجابياتها وصولا إلى التكيف الأفضل مع الواقع العالمي التي تصنعه البراغمية اليوم.

فهل يمكن زرع مثل هذا النموذج، بنفس النجاح، أو بنجاح مقارب، خارج الولايات المتحدة الأمريكية؟ وصولا إلى فهم أفضل للتقدم الأمريكي وإلى الوقوف على ما أمكن من شروط لتوظيفها داخل وطننا العربي، بما يتماشى وعقيدته وتراثه، من جهة والتحديات التي لا تزال تتهبط طموحاته في مثل ذلك التقدم وذلك التطور المنشودين من جهة أخرى. للخروج من تحلفه ولتحقيق تقدم يعتمد على الفاعلية والتقنية ولكنه لا ينسلخ في نفس الوقت ومثلما فعلت أمريكا عن الدين، الذي لا حياة وكما يلاحظ ابن خلدون بدونه.

فما السور الذي، لعبه الدين، ولا يزال يلعبه، في كل ذلك. وهل يمكن تفعيل مثل هذه التجربة الأمريكية؟ كيف؟

#### - قائمة المصادر والمراجع -

1. القرآن الكريم.
2. حيرش سمية، شارل سنندرس بورس بين العقل والتصوف، مجلة الحدائق، العدد 139\_140، دار الحدائق، بيروت، 2011.
3. دشير العاني: حول مفهوم الحقيقة في الفلسفة البراغماتية، مجلة الطريق، العدد السادس، بيروت، 1980.
4. Ch.S.Peirce: Collected Papers, diverses éditions, vol.1-8, Cambridge, (Mass), USA, 1958.
5. Carl. Hausman: C S Peirce evolutionary philosophy, Ed University Press Cambridge, USA, 1997.
6. Gérard Delleale: Ecrit sur Le Signe, Editions Le Seuil , Paris , 1968.
7. C.Tiercelin: Le doute en question. Parades pragmatistes au défi sceptique, Edit L'Éclat Paris, 2005.
8. P. Gauchotte: Le pragmatisme ,Que sais Je ? PUF, Paris, 1992.
9. Ludwig Marcuse: La Philosophie américaine, Gallimard, Paris, 1967.